هوامش

عندما كان ونستون تشرشل، في العشرين من عمره، نشر كتابه «حرب النهر» 1899، وفيه وَصَفَ منطقةَ شلالات النيل أثناء حديثه عن محاولات البريطانيين للعودة إلى السودان

هناك خمسة شلالات أخرى تقع داخل الحدود السودانية (Getty)

شلالات النيل
سحر الطبيعة وقسوتها

ياسر غريب

عنصران يميزان نهر النيل في مسافة تصل نحو 2000 كم بين الخرطوم وأسوان، هما: الشلالات والانحناء العظيم. ووفقاً لتعريفات الجغرافيين؛ فإن الشلالات هي صخور كبيرة وجزر صخرية صغيرة تعترض مجرى النهر، فتنحدر المياه من حولها ومن فوقها بقوة كبيرة وصاخبة. ويتعين على المراكب والسفن التي تعبرها الحذر الشديد، وأن تكون تحت قيادةٍ منتبهةٍ تمتلك الخبرة الكبيرة لتعبر بسلام!

يقول الجغرافي المصري الدكتور عاطف معتمد: «مدافع، مسارع، جنادل، شلالات؛ كلها مسميات مترادفة لمجرى نهر النيل في القطاع الممتد من شمال السودان إلى أسوان حيث تعترض مجراه عقبات من الصخور النارية». مشيراً إلى صور التُقِطَتْ للمنطقة في أواخر القرن التاسع عشر قبل حدوث الفيضان، وقبل إنشاء السد العالي الذي غمرت بحيرته كثيراً من تلك الظاهرة الطبيعية! رئيس الوزراء البريطاني الراحل ونستون تشرشل، كان في العشرين من عمره حين نشر كتابه «حرب النهر» 1899، وفيه وَصَفَ منطقةَ الشلالات أثناء حديثه عن محاولات البريطانيين للعودة إلى السودان بين عامي 1896 و1898 بعد أن طردهم السودانيون عام 1885. يقول تشرشل: «حاول البريطانيون استعادةَ السودان بالسفن الحربية عبر نهر النيل، لذلك اهتموا جداً بالتعرف على كيفية تدفّق المياه عبر الشلالات، فتلك المناطق يستحيل عبورها بالسفن إلا في أوقات الفيضان صيفاً انطلاقاً من مسار النيل الطبيعي في الأعلى إلى الأسفل نحو مصر، كانت الصعوبةُ كبيرةً والخسائرُ يمكن أن تكونَ جسيمةً، ولكنه الوقت الوحيد الذي يتحول فيه المستحيلُ إلى ممكن».

الشلالات بين مصر والسودان عددها ستة، تبدأ وفق طبيعة انحدار النيل من الجنوب إلى الشمال، لكن جرت العادة بأن يوصف شلال أسوان في مصر بأنه الشلال الأول، وهو الواقع بين السد العالي وسد أسوان القديم. شيد خزان أسوان القديم على هذا الشلال الأول، وقد صُممت في نهايته الغربية قناةٌ وهويس بأبواب حديدية كبيرة، يتم فتحها وإغلاقها لحفظ توازن المياه عندما تمر المراكب بمنطقة الجنادل.

بعد ذلك تأتي خمسة شلالات أخرى تقع داخل الحدود السودانية، وهي من الشمال: شلال وادي حلفا (شلال عيكة)، وشلال تومبوس (شلال حنك) قرب مدينة دلفو، وشلال خزان مروي (الأدربية)، وشلال بجراوية (وادي الحمار) في امتداد نهر عطبرة، وآخرها نحو المنبع هو شلال السبلوقة (جزيرة العشير) الذي يعد من الأماكن السياحية الجاذبة لكونه أول الشلالات بعد أن يقترن النيلين الأبيض والأزرق.

يصف تشرشل الشلال الثاني، وهو الآن مغمور تحت بحيرة السد العالي، بأنه يمتد لتسعة أميال طولا وعرضه حوالي ستين قدماً. ويتدفق النهر على الحواف المتعاقبة من الجرانيت الأسود القاسي، وخلال الفيضانات الصيفية يتدفق النهر بسرعة كبيرة لكن مع سطح هادئ لا يبين ما تحته من هياج واندفاع. ولا تستبين الحواف الجرانيتية إلا وقت انحسار الفيضان، وفي أثناء هذه الفترة يتحول النهر إلى رغوة بيضاء كثيفة بسبب اضطراب الماء بين الصخور القاسية، حيث تمتد تلك الرغوة لأميال.

الشلال الثالث، وفقاً لتشرشل، حاجزٌ هائلٌ تمتد مياهُه لنحو 200 ميل، تنساب بنعومة قاتلة في كل المواسم. بينما يعد الشلال الرابع في صحراء المناسر الأشد بأساً من صحراء المناسر نفسها، فتيار النهر ينكسر والقناة التي يشكلها الماء يربكها العدد الكبير من تكتلات الصخور الضخمة، فتندفع المياه مكونة شلالاً خطراً على السفن. ويذكر تشرشل محاولةَ السفينتين الحربيتين «تاماي» (Tamai) و«التب» (El Teb) العبور والصعود أعلى النهر عند هذا الشلال عام 1897، فبالرغم من المساعدة التي حصلت عليها القوات البريطانية من 500 شخص؛ فقد اكتسحت المياه السفينة الأولى، أما السفينة الأخرى فقد انقلبت رأسا على عقب وسحبتها المياه نحو المصب. أما عن الشلالين الخامس والسادس فبالرغم من خشونتهما فإنهما أهدأ من الشلالات الأخرى، ويمكن التنقل فيهما مع بعض الصعوبة والحذر.

يذكر أنه توجد في أعالي النيل مجموعة أخرى من الشلالات مثل شلال الرّصيرص في النيل الأزرق، وشلال الفولة في النيل الأبيض.

باختصار

الشلالات بين مصر والسودان عددها ستة، تبدأ وفق طبيعة انحدار النيل من الجنوب إلى الشمال، لكن جرت العادة بأن يوصف شلال أسوان في مصر بأنه الشلال الأول.

■■■

توجد في أعالي النيل مجموعة أخرى من الشلالات مثل شلال الرّصيرص في النيل الأزرق، وشلال الفولة في النيل الأبيض.

■■■

حاول البريطانيون استعادةَ السودان بالسفن الحربية عبر نهر النيل، لذلك اهتموا جداً بالتعرف على كيفية تدفّق المياه عبر الشلالات.

وأخيراً

عروسة المولد

سما حسن

لم يسرح خيالي الذي تبدَّتْ عليه ملامح الاتِّساع، منذ الصِّغَر متهيِّئًا؛ ليكون خيال قارئة نهمة، أو كاتبة لاحقًا، مثلما سرح مع عروسة المولد التي رأيتها في التلفزيون ذي الشاشة التي بلونين، الأبيض والأسود، وتخيّلتُها أجمل بكثير ممَّا هي في الواقع. وفي كلِّ مرَّة كنتُ أسرح مع البطلة الصغيرة، حين تحصل على هديةٍ من البطل الصغير؛ عروسة المولد، والتي تحتفظ بها سنوات؛ حتى تلتقي مرَّة ثانية بالبطل الذي أصبح شابًا، وقد يتحقَّق حلمُها بالزواج منه، بعد صراع، أو لا يتحقَّق، وقد يخدعها، أو يهجرها، فالمهمُّ أنَّ عروسة المولد كانت همزة الوصل بين مشروع حبٍّ قائم، مفتوح النهاية، ولم أكن أعلم أنها كانت رمزًا للزواج، في عصر الخليفة الفاطمي، الغريب الأطوار، الحاكم بأمر الله، حيث منَع الزواج، إلا في يوم الاحتفال بالمولد النبوي، فتبارى الصُّنَّاع في تزيينها، وصنعوا إلى جوارها فارسًا يركب حصانًا، يرمز للخليفة الفاطمي، ثم أصبح فارس أحلام الفتيات، حتى يومنا هذا، على الرغم من دخول ثقافاتٍ جديدةٍ إلى الثقافة المصرية، خصوصًا. حلمت بعروسة المولد قبل أن أزور مصر، أول مرَّة، في أوائل ثمانينيَّات القرن الماضي، وكنتُ في نحو العشرة أعوام، وكانت عروسة المولد خدعةً وفخًّا، وقعتُ فيهما، في بداية حياتي، مثلما كنتُ أتخيَّل أنَّ شوارع مصر جميلة ونظيفة، وأنني حين أركب سيَّارة أجرة سوف تنطلق أغانٍ رومانسية، أو موسيقى هادئة؛ فتملأ أذنيَّ. كنت طيِّبةً كعِزٍّ ساذج؛ فلم أكن أعرف أن ذلك ما يسمَّى بالموسيقى التصويرية في الأفلام. والحقيقة أن شوارع مصر تضجُّ بالفوضى والغبار والزحام؛ حتى تكاد تلفظ أنفاسك الأخيرة، وأنت تقطع شارعًا في حيِّ العتبة الشعبيّ، أو في حيٍّ إمبابة، ولكنك تقع في حبِّها، على الرغم من ذلك.

أفقتُ على حقيقة الشوارع الموحلة، والتي تلطِّخ ثيابك؛ بمجرَّد أن تتبرَّع السماء ببعض الماء، في فصل الشتاء، وأنك سوف تعود إلى البيت، منتظرًا أن تجفَّ ثيابك القليلة، على حبل غسيل، أُعيد ربطُه غيرَ مرَّة؛ لاهترائه وثقل حِمْله، ولأنك لم تحمل ملابس كثيرة من بلدك، وها أنتَ مرتعد الفرائص، أمام تلفاز صغير، موضوع فوق منضدة منخفضة، تُستخدم لتناول الطعام أيضًا، ويستعدُّ الحاضرون لمتابعة فيلم عربيٍّ قديم، يُعرَض في أيَّام الآحاد، من كلِّ أسبوع، فقط.

وعروسة المولد كانت أوَّل أسباب فقداني أحد أضراسي؛ لأني حاولت أن أتناول قطعة منها. وحين أصبحتْ واحدة في يدي صعقت من بشاعة منظرها، ورائحتها، وسوء طعمها السّكَّري المعجون، المختلط بألوانٍ رخيصة، والزخارف الملوَّنة، خلف ظهرها، والتي بدت، عن قرب، قبيحةً، مرسومةً بخطوطٍ عشوائية، علاوة على القوالب الخشبية، غير النظيفة التي تُصَبُّ فيها عجينة السكَّر؛ لتشكيل العرائس والأحصنة.

> كانت عروس المولد رمزاً للزواج، في عصر الحاكم بأمر الله، إذ منَع الزواج إلا في يوم الاحتفال بالمولد النبوي

في يوم ذكرى المولد النبوي، بكيتُ ذات احتفال، مثلَ كلِّ الاحتفالات السنوية التي تربط الاحتفالات الدينية بإعداد الحلوى، وأنتَ لا تعرف، حتى اليوم، سبب هذا الارتباط، خصوصا في المناطق الفقيرة التي قد ترى أن مثل هذا الاحتفال المخصَّصة له طقوسٌ بعيدة عن الدين، قد تُحَقِّق لهم ربحًا طارئًا، يمنحهم أكثر من كفافِ يومهم، والسبب، في بكائي، أنَّ أمِّي اعتادت أن تُعِدَّ حلوى «العَوَّامة»، في ذكرى المولد النبويِّ، كلَّ عام، ولها أسماءٌ عدَّة، مثل لقمة القاضي، أو اللقيمات. وحين كانت الكُرَاتُ الصغيرة تسقط في الزيت الحامي، وأحاول إلى جوارها استخراجها بسرعة، حين تصبح ذهبية اللون؛ لكي أغرقها بالمحلول السكَّري، انفجرت إحداها في وجهي، وعَلَتْهُ حروقٌ صغيرة، تحوَّلتْ إلى فقاقيعَ مؤلمة، بعد أيام، وبكيتُ بسبب الألم والخوف من أن تنتهي إجازة نصف العام، قبل أن تختفي من وجهي، وكنت أرى أن وجهي الجميل هو جواز مروري، في كلِّ مكان أذهب إليه، ويفتح لي الأبواب المغلقة، وإنها لَسذاجةٌ أيضًا، تستوجب أن ينقلب المرءُ على ظهره؛ ضحكًا عليها، وبسببها.

سعر النسخة: مصر **جنيهان**، تونس **900 مليم**، لبنان **1000 ليرة**، قطر **3 ريالات**، السعودية **3 ريالات**، الكويت **200 فلس**، الإمارات **3 دراهم**، عمان **300 بيزة**، البحرين **300 فلس**، الأردن **400 فلس**، العراق **500 دينار**، المغرب **4 دراهم**، الجزائر **ديناران**، اليمن **50 ريالا**، سورية **25 ليرة**، السودان **10 جنيهات**، ليبيا **200 درهم**، موريتانيا **35 أوقية** ◻ UK **£ 1,20**, Austria **€ 2,20**, Belgium **€ 2,20**, France **€ 2,20**, Germany **€ 2,30**, Holland **€ 2,30**, Italy **€ 2,10**, Spain **€ 2,20**, Switzerland **CHF 3,50**
Turkey **TL 5,00**, USA **$ 2,00**